محاضرة 5: **التعلق و اضطراباته.**

تمهيد

يعتبر التعلق أحد العوامل المحددة لنمو شخصية الفرد. حسب "باولبي Bowlby" فإن علاقة تعلق الطفل منذ طفولته بوالديه أو بالشخص الذي يلبي له حاجاته الأساسية، هي العلاقة الأكثر تأثيرا في حياته المستقبلية، فهي تسمح للطفل بالإحساس بالأمان و تؤدي الى نمو ايجابي كما تؤثر على نوعية علاقاته الاجتماعية اللاحقة.

1- تعريف التعلق:

يقصد بالتعلق في معناه العام، ذلك الرابط العاطفي و الاجتماعي الذي ينشأه شخص اتجاه شخص آخر. أما المعنى الخاص فيقصد به ذلك الارتباط العاطفي الذي يطوره الطفل مع من يؤمَن له الحماية و الأمن خلال السنوات الأولى من حياته و الذي غالبا ما يكون الأم (Tereno, Soares, 2007, p.152). يظهر معنى التعلق أم/ طفل في ثلاثة أوجه و هي: القرب الجسمي و العاطفي، التبادل و الالتزام.

* القرب الجسمي و العاطفي:يستعمل الوالدين أساليب تواصل حسية و حركية عديدة في علاقتهما بالطفل أهمها: اللمس و التواصل البصري. يشارك الطفل من جهته في الحفاظ على القرب من والديه عن طريق استعمال البكاء، الضحكات و التتبَع البصري و هذا ما يزيد من تعلق والديه به. إن الحفاظ على القرب يؤدي الى انشاء مشاعر الحب، الحماية، الفرح و كلما كبر الطفل أصبح قادرا على جلب اهتمام و حب والديه اليه فيزيد تعلقهما به.

* التبادل العاطفي: ان التبادل العاطفي هو نوع من أنواع السيرورات التكيفية داخل العلاقة و هو يؤدي الى ظهور استجابات سلوكية تفاعلية مقنعة. إن الطفل قادر على ادراك التغيرات في نوعية السلوكات العاطفية لدى الوالدين، كما أنه يستطيع المبادرة في انشاء العلاقة العاطفية و توجيهها. اذا لم تكن لمبادرته فاعلية يصبح سلبي. ان التبادل العاطفي يحافظ على دوام العلاقة العاطفية.

* الالتزام: هو الشعور بمسؤولية حمايته و معرفة أن سلوكاتهما و الظروف الحياتية التي يعيش فيها الطفل لها أثر على نموَه، كما أنه من الضروري أن يقوم الوالدين بوضع الطفل في مركز اهتماماتهما و اهتمام العائلة ككل.

2- **نظرية التعلق:** تأسست نظرية التعلق على يد "جون باولبي John Bowlby" في 1958، الذي استلهم مفاهيمها و مصطلحاتها انطلاقا من نظريات التحليل النفسي و علم السلوك الحيواني. قامت نظرية التعلق بإدماج أهمية موضوع التعلق التي تكلم عنها المحللون النفسانيون مع مجموعة من الميكانزمات والتنظيمات السلوكية العلاقية ما بين الرضيع و أمه التي تحدثت عنها "نظرية الأثر"، قام باولبي بتنحية نموذج تبعية الغرائز العاطفية للغرائز البيولوجية التي أتى بها التحليل النفسي وعوضه بنموذج آخر ألا و هو أن **التعلق لا يرتبط باشباع الغرائز البيولوجية وانما غرائز اجتماعية،** هو دائم عبر الزمن و يتطلب وجود قدرات عصبية فزيولوجية، بالإضافة الى الرغبة الفطرية الدائمة للبحث عن العلاقة مع الآخر. ان التعلق حسب باولبي يوفر للطفل الحماية و الأمن الضروريين ليستطيع الانفتاح على العالم الخارجي.
وضع باولبي فرضية مفادها أن التعلق الأولي (من 0 الى 3 سنوات) هو عبارة عن برنامج من السلوكات الفطرية لدى الحيوانات و بالأخص لدى الانسان. إن الفكرة الأساسية التي أتى بها هي أن نموذج سلوك التعلق لدى الرضيع يتطور بهدف زيادة ضمان الحماية والوجود. ان سلوكات التعلق تنتج عن وجود حاجات نفسية داخلية، ألا و هي الحاجة الى ضمان واعادة ضمان الحماية، و هذه الحاجة هي غير مستقرة و انما تختلف على حسب عمر الطفل أولا، على حسب حالته النفسية الداخلية (كالخوف،

الجوع، الألم) ثانيا، و ثالثا على حسب الوضعية الاجتماعية التي يكون فيها. فعندما يكون الطفل بحاجة الى اعادة ضمان الحماية و عندما يوجد تباعد جسمي بينه و بين وجه التعلق، عندها تظهر سلوكات التعلق التي تهدف الى تحقيق القرب والحفاظ عليه.

3- **أنواع التعلق**:

باستعمال تجربة "الوضعية الغريبة La situation étrange"، قامت " ماري أنسفورت Ainsworth. M" بدراسة طولية لمعرفة نوع التعلق ما بين اطفال رضع و أمهاتهم. كشفت نتائج التجربة عن وجود نوعين من التعلق لدى الطفل، تعلق آمن و تعلق غير آمن، انطلاقا من السلوكات التي يظهرها الطفل عند عودة أمه اليه. ان التعلق الآمن سببه وجود ثقة لدى الطفل في الراشد الذي يرعاه (وجه التعلق) واعتماده عليه بصفة دائمة من أجل خفض قلقه و التغلب على مخاوفه، يبدو الطفل مطمئن خلال التجربة بوجود أمه الى جانبه، فلا يمتنع عن محاولة اكتشاف المكان المحيط به، كما أنه لا يظهر خوف شديد عند حضور الشخص الغريب الى نفس المكان، عندما تغيب الأم يعبر عن قلقه وخوفه بطريقة مباشرة، كما أنه سرعان ما يطمئن عندما عند ما تعود اليه. بالإضافة الى أن مشاعر القلق والغضب التي انتابته خلال مرحلة الفراق مع أمه لا تمنعه من اعادة بناء تبادل عاطفي ايجابي معها. الأطفال ذوو التعلق الغير آمن التجنّبي ، يظهرون اندفاعية في اكتشاف المكان، و نشاط حركي مرتفع، فهم قليلا ما يدخلون في تفاعل عاطفي مع أمهاتهم، و لا يتقاسمون معهن الفرحة و المتعة في اللعب، كما أنهم لا يفرقون الا قليلا في تعاملهم ما بين الأم و الشخص الغريب، و أكثر من ذلك، هم لا يبادرون في الرغبة في التواصل مع الأم بعد مرحلة الفراق، و انما يعبرون عن غضبهم بطريقة غير مباشرة، عن طريق تجنب الأم و عدم الاستجابة لها. و من جهة أخرى فان العواطف السلبية التي تنتاب الطفل تمنعه من العودة الى اللعب و اكتشاف المكان بصفة طبيعية.

أما الأطفال الذين لديهم تعلق غير آمن عنيد و متناقض عاطفي، فهم يتميزون بفشلهم في الحصول على الأمن من طرف الأم، و يظهر ذلك من خلال عجزهم و بطئهم في اكتشاف المكان المحيط بهم، هؤلاء الأطفال يبدون مرتابين و حذرين أثناء وجود الشخص الغريب، غالبا ما يبكون و يتشبثون بأمهاتهم حتى قبل أن تنفصل عنهم. أما في مرحلة انفصالها عنه، يكون الطفل في حالة قلق شديد، و عند عودتها اليه فهو يبدي سلوكات عدوانية اتجاهها و غالبا ما تستمر لفترة طويلة مما يمنعه من العودة الى اكتشاف المكان بصفة جيدة. ان نقص الثقة اتجاه الام يكون واضحا و معتبر (Baudier, Celeste, 2002, p.46-47).

باستعمال نفس الوضعية التجريبية (الوضعية الغريبة) على أطفال يبلغون من العمر ما بين 12 و18 شهرا، لاحظ كل من "ماري ماين و "جوديت سولومون" بعض سلوكات التعلق التي لا تنتمي الى أي نوع من الأنواع الثلاثة التي ذكرتها "أنسفورت"، مما اضطرهم الى اقتراح نوع تعلق رابع، أطلقوا عليه اسم التعلق الغير آمن غير منتظم/ غير موجه، حيث يتميز أطفال هذا النوع من التعلق بسلوكات غير عادية و متناقصة في حضور الأم، مثلا نجد أن الطفل يتوجه نحو أمه و نظره منحرف عن نظرها و يبقى في حالة ذهول أثناء غيابها عنه، عند عودتها اليه يبدأ في البكاء. تدل حلة هؤلاء الأطفال على أنهم فشلوا في بناء نموذج نفسي داخلي فعال. هذا النوع من التعلق نجده خاصة لدى الأطفال الذين يعانون من سوء المعاملة من طرف الأشخاص الذين يتكفلون بهم (أوجه التعلق)، أو الأطفال الذين لديهم اضطرابات عقلية.

4- **نمو التعلق عند الطفل**: ان المقصود بنمو التعلق لدى الطفل هو تطور مجموعة من الأنظمة السلوكية التي تمهد الى تكوين علاقات التعلق مابين الطفل و وجه التعلق. تنمو سلوكات التعلق، حسب "باولبي"، عبر أربعة مراحل، المراحل الثلاثة الأولى منها تكون خلال السنة الأولى من عمر الطفل و المرحلة الرابعة تبدأ مع بداية السنة الثالثة، و هي كالآتي:

* المرحلة الأولى: تسمى مرحلة التوجه و الاشارات مع تعرّف محدود للأوجه، تمتد من عمر 08 الى 12 أسبوع. الطفل في هذه الحالة غير قادر على التفريق ما بين الأشخاص، هو يميل الى الانتباه لجميع الراشدين بصفة عامة، بهدف اشباع حاجاته الغريزية ثم تبدأ سلوكات الرضيع بأخذ طابع اجتماعي لتبلغ ذروتها في عمر 12 أسبوعا، لأنه العمر الذي يستطيع فيه الرضيع التعرف على الوجه الانساني، فيستجيب له بطريقة اجتماعية ارادية كالابتسامة و الضحك.

* المرحلة الثانية: هي مرحلة التفريق بين مختلف الأوجه، تمتد من 12 الى 24 أسبوعا، حيث تظهر على الرضيع تدريجيا استجابات تختلف باختلاف أوجه التعلق، يمكن لهده المرحلة أن تمتد الى ما بعد 6 أشهر تبعا لنوعية العلاقات العاطفية ما بين الرضيع و وجه التعلق.

* المرحلة الثالثة: هي مرحلة القدرة على البقاء في تواصل مع وجه التعلق الخاص بفضل الحركة والاشارات، تمتد من 6 الى 36 شهرا، تتميز هذه المرحلة بظهور تطورات ملحوظة في النمو الحركي، المعرفي و العاطفي عند الطفل، حيث تسمح له الحركة باكتشاف المحيط باستمرار، وبأكثر فاعلية من ذي قبل. ان سلوكات الاكتشاف في هذه المرحلة و ما يرافقها من مخاطر على أمن الطفل تؤدي الى تمتين علاقات التعلق التي تهدف الى حماية الطفل.

* المرحلة الرابعة: مرحلة تكوين علاقات تشاركية و تبادلية، فبعد 36 شهرا يبدأ الطفل تدريجيا، بعد التخلي عن أنانيته، بالأخذ بعين الاعتبار لوجهة نظر وجه التعلق، ومنه القدرة على معرفة أن مشاعره و دوافعه، أهدافه و مخططاته يمكنها أن تؤثر في سلوك وجه التعلق. بمعنى آخر يصبح الطفل قادرا على تصحيح سلوكاته على أساس الغاية من تلك السلوكات. الطفل في هذه المرحلة يبذأ بادراك وجه التعلق على أنه شخص مستقل عنه، دائم الوجود، ويمكن توقع سلوكاته المستقبلية.

4- التعلق في مرحل الطفولة الوسطى و المتأخرة:يوجد عدة وضعيات قد تؤدي الى تحفيز جهاز التعلق خلال هذه المرحلة، كما قال Kobak 2005، أهم هذه الوضعيات هي (ادراك الخطر على الذات)، يمكن للخطر أن يكون خارجي لكن قد يكون كذلك داخلي كالإصابة بمرض ما، التعب أو الاحساس بعواطف سلبية، يصبح الطفل في هذه الوضعيات بحاجة الى أوجه التعلق من أجل استرجاع حالة التوازن عندما لا تستطيع قدراته النفسية فعل ذلك. يوجد وضعيات أخرى تؤدي الى تحفيز التعلق لدى الطفل، مثلا: ادراك الخطر لدى الغير الذي يؤدي الى الشعور بالقلق. يحدث هذا التحفيز خلال حالات الانفصال كدخول الأم الى المستشفى مثلا. يتم تحفيز جهاز التعلق كذلك عن طريق مشاعر الرغبة في الاستكشاف، حتى يستطيع الطفل اكتشاف العالم المحيط به يحتاج الى معرفة ما اذا كانت أمه مثلا متواجدة في حالة ما اذا احتاج اليها من أجل أن تدفعه للقيام بهذا الاستكشاف

5- التعلق في مرحلة المراهقة: يرتبط التعلق في هذه المرحلة بنوعيته في مرحلة الطفولة، فالنمط الآمن يساعد على الاستقلالية و بناء علاقات ناجحة مع الأقران و النمط الغيرآمن يئدي الى الانفصال التام عن الوالدين أو الاعتمادية و التبعية المفرطة لهما، إضافة الى إقامة علاقات مع الأقران. عكس ما يحدث عند الطفل فإن الضغط من أجل الاستقلالية الذاتية يكون بأكثر كثافة و ديمومة و تنافسية مع نظام التعلق، عندما تكون شدة التعلق الغير آمن و الضغط من أجل الاستقلالية كبيرجدا يحتمل الوقوع في خطر عدم التوازن بين الاستكشاف و التعلق، لتتحول القاعدة الآمنة الى سجن يشل نمو الفرد و يصبح الحل الوحيد هو ظهور السلوك المرضي.

6- اضطرابات التعلق عند الطفل و المراهق: ن الخاصية الرئيسية للأطفال الذين يعانون من اضطرابات التعلق هي عدم قدرتهم على الاستجابة بطريقة سوية للمثيرات المحيطية على المستوى العاطفي و الاجتماعي. ان اضطرابات التعلق مشكل معقد و أهم أعراضه:

1- السلوكات الضد اجتماعية خلال الطفولة: هي سلوكات غريزية، عدوانية و عنيفة مع عدم القدرة على التعلم من الخبرات الاجتماعية (خاصة العقاب و المنع). يمكن للطفل أن يعتدي على الآخرين و على الحيوانات كما لا يحس بالخجل و لا بالندم أو بتأنيب الضمير و يتَهم الآخرين عند مواجهته بسوء سلوكاته.

2- سلوكات تعلق غير انتقائية: يكون الطفل لطيف و واثق في جميع الأشخاص الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، غير قادر على التفريق ما بين الأقرباء و الغرباء عنه، يظهر سلوكات غير ناضجة وعلاقاته بالآخرين تكون سطحية و قصيرة المدة

في دراسة طولية بجامعة Minnesota، وجد الباحثون علاقات وطيدة و خاصة ما بين خبرات التعلق الأولي و السلوكات الضد اجتماعية، القلق المرضي، الاكتئاب و الاضطرابات التفككية. تم ربط نوعية التعلق التجنبي في الطفولة الأولى بظهور السلوكات العدوانية خلال المراهقة، خصوصا لدى الذكور. تبيَن أن الافراد الذين يعانون من هذه الاضطرابات، من خلال معرفة ظروف حياتهم خلال السنوات الأولى، أنهم تعرضوا لمجموعة من العوامل كاكتئاب الأم، غياب أحد الوالدين، حياة مضطربة، نقص حساسية الأم اتجاه الطفل و رعاية سيئة كذلك و منه فالتعلق التجنبي بالتعاون مع عوامل أخرى يرفع بشكل كبير احتمالية ظهور السلوكات الضد اجتماعية. تؤدي اضطرابات التعلق الى تخليف مجموعة من الاضطرابات في نشاط الجهاز العصبي بالإضافة الى اضطرابات تمس الصحة النفسية و العقلية لدى الطفل. دراسات عصبية نفسية حديثة أظهرت أن علاقات التعلق أم رضيع تؤثر بشكل كبير على نمو مساحات معينة في الدماغ، هذه المساحات هي المسؤولة عن تنظيم سلوكاتنا مع المحيط

خلاصة:

نستخلص أن التعلق عبارة عن ارتباط عاطفي يجمع بين الطفل و والديه، ينشأ هذا الارتباط العاطفي قبل الولادة و يتطور عبر مراحل نمو الطفل. ظهرت نظرية التعلق على يد "جون باولبي"، على فرضية أساسية مفادها أن التعلق الأولي بين الطفل ووالديه هو أساس بناء شخصية الفرد وتكيفه الاجتماعي.
ينقسم التعلق الى أربعة أنواع هي: التعلق الآمن، التعلق القلق، التعلق التجنبي والتعلق الغير منتظم/ الغير موجه، تؤدي اضطرابات التعلق الى ظهور مجموعة من الإضرابات النفسية و هذا ما يؤثر سلبا على مسار النمو المعرفي والعاطفي عند الطفل.